

البعد الأستمولوجي واللغوي للوضعية المنطقية

د. محمد رضا نقاز*

Abstract:

The philosophers of analysis differed among themselves about their concept of language and their position on the ordinary language. On the other hand, they differed in their concept of analysis, both at the level of the intellectual and philosophical premises from which they originated, or in the nature of its results. Thus, these data show a clear indication that the philosophy of analysis was not a school with a single conception either in terms of philosophy or analysis. For this reason, it carried different trends, including "the orientation of logical positivism" which is one of the most famous trends of analytic philosophy of the scientific spirit and its ambition towards a philosophy of scientific character. The logical positivism reflected the great presence of empirical English philosophy, in terms of the methodological and epistemic structure of the experimental doctrine hostile to all metaphysical and we can ask the following question: Did the logical position succeeded in refuting metaphysics and unifying science through the linguistic analysis? And then was it able to achieve a purely scientific philosophy?

Key words: Analytic philosophy, analysis, ordinary language, positivism logical, metaphysical, unity of science.

إن فلاسفة التحليل اختلفوا فيما بينهم حول مفهومهم للغة وموقفهم من اللغة العادية، ومن جهة أخرى اختلفوا أيضا في مفهومهم للتحليل، سواء على مستوى المنطلقات الفكرية والفلسفية التي انطلقوا منها، أو من حيث طبيعة نتائجهم. إذن هذه المعطيات تدل دلالة واضحة بأن فلسفة التحليل لم تكن مدرسة ذات تصور واحد سواء من جهة الفلسفة، أو من جهة التحليل، لهذا السبب كانت تحمل في طياتها اتجاهات متباينة، ومن بينها "الاتجاه الوضعي المنطقي" الذي يعد من أشهر اتجاهات الفلسفة التحليلية لمسارته للروح العلمية وطموحه نحو فلسفة علمية الطابع. إن الوضعية المنطقية انعكست معها معالم الحضور الكبير للفلسفة التجريبية الإنجليزية، من حيث البنية الميتودولوجية والإبستمية للمذهب التجريبي العادية لكل ما هو تجريدي ميتافيزيقي، وعليه يمكن أن نطرح التساؤل التالي: هل نجحت الوضعية المنطقية في دحض الميتافيزيقا وتوحيد العلوم من خلال التحليل المنطقي للغة؟ ومن ثم هل استطاعت أن تحقق فلسفة علمية محضة؟

ميلاد الوضعية المنطقية

* - عضو باحث بـمخبر الفلسفة وتاريخها بجامعة وهران 2، الجزائر.

تعد حركة الوضعية المنطقية من أبرز الحركات الفلسفية المعاصرة، حيث بدأت هذه الحركة بما سميت حلقة فيينا *cercle de vienne*، وضمت جماعة من الفلاسفة والمناطق وعلماء الطبيعة والرياضة والاقتصاد جمعهم اتجاه تجريبي معين، كما تلهذوا على كتب راسل المنطقية. وقد بدأ تكوين حلقة فيينا الفعلي عام 1922م، و كان شليك Schilik رائدها، والتف حوله عدد من زملائه مثل نويراث Neurath و كارناب Carnap، وفيجل Feigl، وفايزمان Waisman وآخرين (فهيم: 121) أمثال العالم الفيزيائي فليب فرانك Philipe Frank وعالم الرياضيات هانز هان Hans han وخرجت إلى الضوء فجأة في عام 1929م تحت اسم "حلقة فيينا" مع ظهور كتيب لها يعرض برنامجها بعنوان "النظرة العلمية إلى العالم، حلقة فيينا" ثم بدأت مجلة "المعرفة" في الظهور في العالم التالي 1930م وحلت محلها عام 1939م مجلة العلم الموحد". (بوشنكي، 1992: 82) ولأجل أن تكون فلسفتهم معروفة في الأوساط العالمية تعاقبت المؤتمرات الواحد تلو الآخر، في براغ عام 1929، وفي كونجبرج عام 1930، وفي براغ من جديد عام 1934 وفي باريس عام 1935، وفي كوبنهاجن عام 1936 وفي باريس مرة أخرى عام 1937 ثم في كمبرج بإنجلترا عام 1938 ثم في كمبرج بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1939. وهذا وحده كاف للدلالة على ديناميكية هذه الحلقة وعلى طابعها العالمي (بوشنكي، 1992: 82). ونتيجة متابعة الاحتلال النازي لأعضاء فيينا ومراقبته لنشاطاتها رحل بعضهم إلى إنجلترا والبعض الآخر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. أما الفاجعة الكبرى التي مست هذه الجماعة هي مقتل مؤسسها "شليك" من طرف طالب مصاب بمرض عقلي بسبب رفضه لأطروحاته التي قدمها في علم الأخلاق. وبناء على هذا الانتشار لهؤلاء الأعضاء عبر مختلف الجامعات، كسبت التجريبية المنطقية باعتبارها اتجاهها فلسفيا وعلميا، الكثير من العلماء والفلاسفة في جميع أنحاء العالم ولا يزال لها الكثير من المدافعين عنها (خليل، 2012: 222).

من أهم الفلاسفة البارزين في هذه الجماعة هو "كارناب" الذي يظهر على هيئة المنظر المنطقي لهذه الحلقة ورئيسها، فهو الأمين على أهدافها الرئيسية وأكثر شخصياتها أصالة وإبداعاً. بتحديد المرجعيات الفكرية لحلقة فيينا، فإن الملاحظة المبدئية لأعضائها المكونين من حيث تخصصاتهم تدل دلالة واضحة على ذلك التنوع في الجانب المعرفي لكل واحد منهم، بحيث أن هناك فيزيائيين، رياضيين، علماء اقتصاد، منطقة وفلاسفة... إلخ. إذن تشكلت البنية المعرفية والمنهجية للفلسفة الوضعية من كل هذه المنابع التي أنتجت تيار علمي وفلسفي جديد عنوانه "الوضعية الجديدة".

ولعل السبب الرئيسي في خلفية تبني الوضعية المنطقية للاتجاه التجريبي يعود إلى تلك المضامين التي كانت تحملها الفلسفة التجريبية في التيار الأنجلوساكسوني، حيث كانت معروفة بعوائها الشديد لكل ما هو ميتافيزيقي، أي معادية لكل الكيانات العقلية المغرقة في التجريد، التي هي غير قابلة للملاحظة الحسية ولا إلى التحقق التجريبي. وبهذا فإن هناك علاقة وطيدة بين الوضعية المنطقية وفلسفة العلوم، بحيث أنهما يشتركان في نقد الميتافيزيقا، باعتبارها قضايا خالية من المعنى، وليس لها من سند، سواء تجريبي أو رياضي (ابراهيم مصطفى، 2000: 67).

وعليه فإن الرؤية الجديدة في مجال البحث الفلسفي جعلت الوضعية المنطقية السبّاقة في تحويل مسار الفلسفة من مجالها التقليدي إلى مجال جديد والمتمثل في خدمة المعرفة العلمية، وهنا يتجلى لنا الطابع الإستيمولوجي لهذه الفلسفة.

لقد كانت الأرضية الأولى التي انطلقت منها الوضعية المنطقية هي الفلسفة التجريبية الإنجليزية، ولعل ملاحظ التأثير كانت بادية في تمسكها بالعلم التجريبي، وعداءها للبيتاغوريزم. بالإضافة إلى ذلك فهي تعد امتداداً للوضعية الكلاسيكية التي عرفت في القرن التاسع عشر على يد "أوغست كونت"، حيث أرجع هؤلاء الوضعيون المناطق كل معرفة علمية إلى التجربة الحسية، وحافظوا على بقاء لفظ "وضعية" بكل خصائصه في هاته الفلسفة الجديدة، وهذا دليل على وجود بعض علامات التبني لها، وحضوره يكمن في التسمية "وضعية منطقية" وقد كانت تسمى أحياناً "بالتجريبية المنطقية"، وأحياناً أخرى "بالوضعية المنطقية الجديدة" نتيجة تأثيرها بالمنطق الرمزي والتحليل المنطقي للغة عند كل من فريجه وراسل، وبشكل خاص لودفيج فيتغنشتاين الأمر الذي جعل كارناب يقرّ بضرورة استعمال التحليل المنطقي في مجال الفلسفة. إن هذه المصطلحات السالفة الذكر غالباً ما كانت تستعمل للدلالة على مفهوم واحد، حيث يرى "زكي نجيب محمود" بأن مصطلحي "وضعية منطقية" أو "تجريبية منطقية" يمكن استعمال أحدهما بدل الآخر دون الإخلال بالمعنى والدلالة، لهذا فهو يرى بأنها سميت "بالوضعية"، لأنها تشترط في صحة كل عبارة تشير إلى عالم الأشياء، قدرة تلك العبارة على تقديم ما يمكن التحقق منه بواسطة الحواس. وسميت "بالمنطقية" لأنها تكتفي بتحليل لغة العبارة نفسها، وهذا التحليل نفسه كفيلاً بإرشادنا إن كانت العبارة مقبولة من ناحيتها المنطقية أو غير مقبولة (محمود، 1967: 26). فمقياس الحق هو الحواس، وعليه فإن هذه الفلسفة تبني تارة مصطلح "التجريبية" للتأكيد بأن كل معرفة لا بد أن تمر بالخبرة الحسية المثبتة. أما من حيث الضبط المعجمي لمصطلح "الوضعية المنطقية" فقد جاء في لاروس- المعجم الكبير للفلسفة- أن الوضعية المنطقية (positivisme logique) هي ذلك المذهب الفلسفي الذي دافع عنه فلاسفة الألمان وبالأخص نمساويين في العشرينيات من القرن العشرين (1920-1930) حيث اهتم بقضية التحليل المنطقي لقضايا العلم والفلسفة (blay, 2005: 835).

أما إذا انتقلنا إلى مصطلح "الوضعية المنطقية الجديدة"، فإننا نجد في نفس المعجم أن هذا المصطلح مرادف لـ: "الوضعية المنطقية"، وهذين المصطلحين يشيران إلى أعمال حلقة فيينا (شليك، كارناب، نوراث)، والتي لها صلة مباشرة مع وضعية أوغست كونت، ولكن هذا الأمر لا يمنع من وجود نقاط اختلاف كبيرة بين وضعية القرن التاسع عشر والوضعية المنطقية الجديدة من الناحية الإستيمولوجية، خصوصاً أن "الوضعية الجديدة" تؤكد بشدة على تحقيق ما يسمى "بالعلم الموحد" والجهر بتبني التجريبية والمنطقيات معاً (Blay, 2005: 834).

أما لفظة "الجديدة"، فالهدف منها هو تمييزها عن الوضعية الكلاسيكية، وما تحمله من أفكار جديدة مواكبة لتطورات العلوم.

إذن الوضعية المنطقية تستند على معيار تجريبي منطقي، يؤكد على ضرورة المطابقة بين المعنى والملاحظة الحسية، أي ما لا يحس به لا معنى له، وأن ما لا معنى له كلام فارغ خالٍ من المعنى. وعليه فإن من أهم

مبادئ الفلسفة الوضعية، هو التحقق من صحة ما نبحث عنه. فالمعرفة يجب أن تثبت وتبرهن بملاحظات علمية وتبريرات حسية، وهذه أهم مقاييسها للوصول إلى الحقيقة، فما لا يحس لا معنى له، وما لا معنى له لا حقيقة له.

وبهذا تهدف الوضعية المنطقية إلى تغيير اتجاه الفكر الفلسفي من تفكير ميتافيزيقي إلى تفكير علمي، متأثرة بالمنهج الحسي وفلاسفته (الصراف، 1983: 265) بدليل أنها تعد نموذجا متطورا للمذهب التجريبي. وفي هذا السياق يمكن أن نلخص خمسة مؤثرات ساهمت في نشأة هذه الحركة الفلسفية الجديدة وهي كالتالي:

- 1- تأثرها بالتجريبية الإنجليزية التي عرفها تاريخ الفكر منذ القرن السابع عشر والثامن عشر على يد "بيكون"، "لوك"، "باركلي" و"هيوم".
- 2- تأثرها بالوضعية الكلاسيكية التي نشأت على يد "أوغست كونت" و"جون ستيوارت مل" و"ماخ".
- 3- تأثرها بالمدرسة النقدية التي نشأت في ألمانيا على يد أفيناريوس وأبرز تلامذته جوزيف بتزولت.
- 4- تأثرها بعلم المناهج الخاص بالعلم التجريبي على يد علماء منذ منتصف القرن التاسع عشر مثل ماخ، بوانكاري، آينشتاين، هلهولتز.
- 5- تأثرها بالمنطق الرمزي والتحليل المنطقي للغة وعلى وجه الخصوص عند كل من فريجه، راسل وفتجنشتاين.

إذن على ضوء هذه الأرضية التي انطلقت منها الوضعية المنطقية، ما هي الأهداف التي كانت تسعى إلى تحقيقها؟

أهداف الوضعية المنطقية

إن الاتجاه الوضعي يسعى إلى الاستبعاد الكلي للميتافيزيقا، فالوضعيون الجدد يتفقون مبدئيا على رفض الميتافيزيقا التقليدية والسعي إلى خلق فلسفة علمية جديدة وإحلالها محل الميتافيزيقا، وبالتالي الوصول إلى لغة علمية واضحة تسمح بدورها على تحقيق وحدة العلوم، لكن ما هي الحجج الدامغة التي استدلت بها الوضعية المنطقية في دحضها للميتافيزيقا؟ وهل استطاعت أن تبني قاعدة منهجية لتحقيق وحدة العلوم؟

لقد سعت الوضعية المنطقية إلى تقريب الفلسفة من العلم، وهذا الأمر لن يتحقق إلا باستبعاد الميتافيزيقا استبعادا تاما، فكل عبارة خالية من المعنى، هي عبارة مضللة وزائفة.

وإذا كان كانط يحاول أن يقيم الميتافيزيقا على أساس علمي، فإن النزعة التجريبية المنطقية كنزعة فلسفية وعلمية، ترى أن الميتافيزيقا لا يمكن أن تؤسس على قواعد علمية، وأن كل قضية ميتافيزيقية هي قضية خالية من المعنى، لأن المعنى في اعتقادهم هو المعنى المنطقي أو التجريبي، فهي بذلك ترفض القول أنه بالإمكان تكوين ميتافيزيقا أساسها العلم (خليل، 2012: 223). وفي هذا السياق يقول رودولف كارناب: «كثير خصوم الميتافيزيقا منذ شكك اليونان حتى تجريبي القرن التاسع عشر قد تنوعت انتقاداتهم، ففي حين ذهب الكثير من الفلاسفة إلى أن تعاليم الميتافيزيقا باطلة لأنها تتعارض مع معارفنا الإمبريقية، وفي حين قرر بعض منهم أنها تعاليم غير يقينية على اعتبار أن مشاكلها تتجاوز حدود المعرفة البشرية، أعلن الكثير من خصوم الميتافيزيقا أن

الاشتغال بها جهد عقيم لا طائل من ورائه ... عندما أقول إن قضايا الميتافيزيقا المزعومة "تخلو من أي معنى"، فإنني أعني هذه العبارة بمدلولها الدقيق» (مور، 1994: 140-141).

إن المشكلة الزائفة هي تلك المشكلة التي لا تملك حلاً، إنها مشكلة بالأساس خالية من المعنى. لذا كان من واجب الفلسفة الجديدة أو بالأحرى الطريقة الجديدة- متبعة في ذلك برنامجها المضاد للميتافيزيقا-، هو توضيح هذه المشكلات التي لا تملك معنى أو دلالة، مبرهنة بذلك على أن استحالة حل مثل هذه المشكلات، لا يعود البتة إلى محدودية العلم، وإنما يعود إلى خطأ في الطرح لذلك ينبغي إقصاؤها فهي ليست مشاكل حقيقية (بغورة، 2005: 89).

وفي هذا الإطار يمكن الإشارة إلى نقطة مهمة ضمن السياق التاريخي أن رفض الميتافيزيقا التقليدية لم يكن من قبل الوضعية المنطقية فقط، بل سبقهم التجريبيون والوضعيون الكلاسيكيون مثلاً: هيوم قد وصف الميتافيزيقا بأنها سفسطة ووهم، وهذا ما بينه في كتابه الرئيسي مقالة في الفهم البشري سنة 1748 في قوله: «عندما نجوب المكتبات وقد اقتنعنا بهذه المبادئ فأني تدمير يتعين علينا القيام به؟ إذا أخذنا مجلدا في اللاهوت أو الميتافيزيقا المدرسية على سبيل المثال، دعونا نتساءل: هل يحتوي على أي تفكير مجرد يتعلق بالكم أو العدد؟ كلا. فلنلق به إذن في اللهب فليس بمقدوره أن يحوي سوى الأوهام» (مور، 1994: 30). وعليه يرى "هيوم" بأن الموضوعات الوحيدة للعلم المجرد، هو الكم أو العدد. وبهذا فإن وجهة نظر الوضعية المنطقية تتشابه مع وجهة نظر هيوم في تقسيمهم للقضايا التي لها معنى إلى نوعين:

قضايا صورية مثل قضايا الرياضيات البحتة والمنطق في جانب، والقضايا التجريبية العامة وصيغ القوانين العلمية في جانب آخر أي التي تكون قابلة للتحقق الإمبريقي، وماعدا هذين النوعين فهي قضايا لا معنى لها (فهمي، د.ت: 122). ومن ثم فإن القضايا التحليلية والتركيبية هي القضايا الحقيقية عند الوضعية المنطقية. فالقضايا التحليلية Analytic propositions هي قضايا أولية قبلية سابقة عن كل تجربة حسية كقولنا الكل أكبر من الجزء أو $4=2+2$ هي قضية تحليلية صادقة وتحصيل حاصل، يستخرج محمولها من موضوعها دون زيادة فهي يقينية وصادقة على الرغم من أنها لا تنبئ بشيء جديد. أما القضايا التركيبية synthetic propositions فهي قضايا العلوم الطبيعية، بحيث تزيد محمولاتها عن موضوعاتها ما ينبيء بشيء جديد، بمعنى أن هذه القضايا تحتمل الصدق والكذب، ويعتمد صدقها على مدى مطابقتها مع الواقع التجريبي، وقضاياها بعدية يتم الحصول عليها بعد التجربة.

أما إذا قلنا "النفس خالدة"، "المكان لامتناه"، "الزمان لامتناه"، إن مثل هذه القضايا تعد ميتافيزيقا، وهي قضايا ليست تحليلية لا يمكن اعتبارها تحصيل حاصل كقضايا الرياضيات والمنطق، ولا تدخل ضمن القضايا التركيبية لأن التثبت منها بالخبرة الحسية غير ممكن أبداً، لأنه لا يوجد شيء في الطبيعة اسمه النفس يمكن اختباره أو التأكد من وجوده، فالنفس أصلاً شيء غير مادي ولا محسوس (عاطف، 1980: 47).

إذن كل دراسة خارج إطار المعارف القبليّة والمرتكزة أساساً على الرياضيات والمنطق، والمعارف البعدية المرتكزة على الدراسات التجريبية هي دراسة لا معنى لها. وعليه إذا شاءت الفلسفة أن تكون فرعاً معرفياً أصيلاً يتعين عليها أن تحرر نفسها من الميتافيزيقا وأن تجنّب نفسها لتحليل القضايا العلمية.

أما إذا انتقلنا إلى الوضعية الكلاسيكية، فإنها تشترك مع الوضعية الجديدة في الهدف، إلا أنها تختلف عنها في المنهج. لقد استخدمت وضعية "أوغست كونت" طرق وأساليب العلوم الطبيعية في رفضها للميتافيزيقا، في حين استخدمت الوضعية المنطقية "تحليل اللغة". وقد اعتبر "كونت" الميتافيزيقا مجرد مرحلة من المراحل التي مر بها الفكري البشري، وسرعان ما انتهت لتعوض بمرحلة حاسمة وأساسية والمتمثلة في المرحلة الوضعية.

إن الوضعيين الجدد ينظرون إلى الميتافيزيقا على أن دورها قد انتهى، لأن معرفة حقائق الواقع تعتمد على مناهج العلوم التجريبية. ومن هذا المنطلق أخضعوا الفلسفة عموماً والميتافيزيقا خصوصاً للتحليل المنطقي اللغوي. وفي نظر الوضعيين المنطقيين، يجب أن يقوم المنهج على قاعدتين أساسيتين هما: التحليل المنطقي اللغوي، والتحقيق التجريبي، وبناء على هاتين القاعدتين أطلق كارناب على الوضعية الجديدة اسم آخر هو "التجريبية المنطقية" (بغورة، 2005: 89) لأن قضاياها تجريبية لا تعترف إلا بالقضايا اللغوية التي تشير إلى الواقع التجريبي. ومن جهة أخرى اعتبر كونت وأتباعه العبارات الميتافيزيقية قضايا أقل وضوحاً من قضايا اللاهوت، وصرح بأن هذه العبارات قد أثارت مشاكل استعصى حلها على أذهان الميتافيزيقيين جميعاً. ومن ثم وجب رفضها، والاكتفاء بقضايا المجال التجريبي. أما التجريبية المنطقية المعاصرة فإنها ترفض التسليم بالميتافيزيقا على أساس أنها كلام فارغ لا يحمل معنى يمكن وصفه بالصواب أو الخطأ (الطويل، 1967: 274).

ومن هنا نلاحظ بأن الوضعية سواء الكلاسيكية أو المعاصرة قد تأثرت بتجريبية "دافيد هيوم"، والكل قد أجمع بأن القضايا الميتافيزيقية بدون معنى، أي أنها تفتقر إلى الأسس المنطقية والتجريبية، وبالتالي ينبغي استبعادها، لهذا هاجم الوضعيون المناطقة الميتافيزيقا بسلاح بسيط من خلال القضايا التي لها معنى، وهي القضايا التحليلية والتركيبية، غير هذين النوعين من القضايا يعد في رأيهم كلام لا معنى له وأنها مجرد لغو. طالما لا توجد طريقة ممكنة وواضحة للتحقق من هذه القضايا الميتافيزيقية، كالمكان اللامتناهي، المطلق خارج الزمان... إلخ دليل لا توجد أية تجربة ممكنة تجعلنا نتحقق منها، إذن يبقى هذا الأمر مستحيل تمام الاستحالة.

ومن خلال ما تقدم فإنه لمن الخطأ أن نحكم على الوضعية الجديدة بأنها جاءت لهدم الفلسفة، بل بالعكس كانت تهدف إلى بناء فلسفة علمية، لهذا السبب اتخذت الموقف الهجومي من القضايا الميتافيزيقية باعتبارها قضايا لا تؤكد التجربة ولا تحتوي على معنى تجريبي، ولا يسندها البرهان الرياضي، لهذا فإن مهمة الفلسفة -حسب الوضعيين الجدد- تكمن في التحليل المنطقي للغة، وأن عالم الخطاب ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما: الخطاب العلمي المؤلف من قضايا تحليلية وتركيبية قابلة للبرهان، والتحقق التجريبي -كما رأينا ذلك سالفًا- والخطاب الميتافيزيقي المكون من عبارات خالية من المعنى. ولعل "رودولف كارناب" Rudolf Carnap الذي يظهر على شكل المنظر المنطقي للوضعية الجديدة ورئيسها قد مثل "الاتجاه الوضعي المنطقي" أحسن تمثيل، بحيث أنه كان يسعى إلى تحقيق الغرضين التاليين: الأول كان يتمحور في إضفاء المعنى على العبارات الفلسفية التقليدية، وذلك من خلال حذف الميتافيزيقا عبر التحليل المنطقي للغة. أما الغرض الثاني هو نتيجة للأول ويتلخص في تحويل تلك المشكلات الفلسفية إلى مشكلات علمية، لذلك ينطلق كارناب في تقديمه لأبحاثه

حول "وحدة العلم" بتحليل منطق العلم وهذا ما يتجلى في قوله: "عملنا هو التحليل المنطقي لا الفلسفة" (Carnap, 1971: 278). والفلسفة التي تبرا منها كارناب هي "الميتافيزيقا".

ومن هذا المنطلق فإن مهمة الفلسفة هي تحليل العبارات والألفاظ، من حيث بنائها المنطقي العام، لا من حيث طرائق استخدامها في لغة بعينها. وهكذا يكون العلم بمثابة مضمون المعرفة والفلسفة هيكله وصورته (بغورة، 2005: 88).

ولما كانت التركيبات اللغوية التي تحللها الفلسفة هي في الأغلب ما تقوله العلوم المختلفة من قضايا، أمكن القول عن الفلسفة أنها منطق العلوم، أي تقوم بتحليل القضايا العلمية تحليلاً يبرر طريقة تركيبها وصورة بنائها ليتضح معناها.

وبهذا لم تعد تهدف الفلسفة الجديدة في ظل التطورات العلمية المعاصرة إلى بناء أنساق ومذاهب فلسفية كبرى، أو التأمل المهادف إلى البحث عن الأسباب القصوى لهذا الوجود، بل أصبحت وظيفتها الجديدة في ظل الاتجاه الوضعي هي محاربة الميتافيزيقا عن طريق التحليل المنطقي للغة، وهذا ما قصده بالفعل كارناب الذي وقف موقف المتسائل في قوله: "ماذا يبقى للفلسفة إذا كانت كل القضايا القادرة على تقرير أي شيء ذي طبيعة إمبريقية تنتمي إلى العلم الواقعي؟ إن ما يبقى ليس قضايا ولا نظرية ولا نسقا، بل منهج، إنه منهج التحليل المنطقي" (مور، 1994: 167). وبالتالي وضع حد حاسم بين الميتافيزيقا والعلوم الطبيعية أي التجريبية، وخاصة الفيزياء والعلوم الاستنتاجية كالرياضيات والمنطق. وبالتالي جعل الوضعيون الجدد من مهمتهم الأولى هي حذف الميتافيزيقا، ثم توضيح لغة العلم وتحديداتها. إذن تقوم الوضعية المنطقية على التأكيد بأن التحليل المنطقي للغة، وخاصة لغة العلم هو جوهر الفلسفة، ويتضح هذا حتى من أسسها، باعتبار أن مجموع ما تقوله اللغة الصحيحة هو مجموع الأشياء الخارجية وعلاقة بعضها ببعض الآخر. وعليه فإن مشروع التحليل المنطقي للغة جاء خصيصاً لدحض الميتافيزيقا باعتبار أن جميع قضاياها فارغة من كل معنى، والسعي إلى بناء فلسفة علمية.

إن علاقة الفلسفة بالعلوم تظهر جلياً عند أنصار الاتجاه الوضعي المنطقي من خلال مبدأ التحقق (Principle of Verification) الذي يعتبر من أبرز المبادئ الجوهرية التي قامت عليها الوضعية المنطقية، حيث أخذ هذا المبدأ مكانة هامة في فلسفتها، فقد انتهجته كميّار لكشف صدق أو كذب القضايا العلمية. ومعنى القضية يتحدد بواسطة طريقة تحقيقها تجريبياً، لهذا السبب اعتبروه الأداة المثلى لتوضيح المعنى، حيث توصلوا إلى نتيجة مفادها بأن كل ما يحل معنى يمكن الحكم عليه إما بالصدق أو الكذب. وعليه فإن قضايا الميتافيزيقا لا تخضع للتحقق التجريبي، وبالتالي ستكون قضايا بلا معنى، فهي مجرد لغو وفارغة من كل معنى.

وقد صيغ هجوم الوضعية المنطقية على الميتافيزيقا بإيجاز دقيق في القياس التالي:

- كل العبارات الميتافيزيقية لا يمكن التحقق من صدقها تجريبياً.

- كل العبارات التي لا يمكن التحقق من صدقها تجريبياً عبارات لا معنى لها.

إذن كل العبارات الميتافيزيقية لا معنى لها (إمام، 1986: 149).

وهنا يتوقف كارناب عند بعض القضايا الميتافيزيقية التقليدية، كالقضية القائلة بأن "العلة الأولى للعالم هي اللاشعور"، أو أن ثمة "قوة فاعلية هي المبدأ الموجه لسائر الكائنات الحية"، لكي يقول لنا إن الفيلسوف الوضعي

المنطقي لا يزعم أن أمثال هذه القضايا كاذبة، بل كل ما يريده هو أن يسائل أصحابها قائلاً: ما الذي تعنونه بهذه العبارات، فإن الفيلسوف الوضعي المنطقي لا يسعه سوى الاعتراف بأن كل هذه العبارات فارغة تماماً من كل معنى والسبب في ذلك أن القضايا الميتافيزيقية ليست قضايا تحليلية، كما أنها لا تقبل التحقق تجريبياً، فهي لا يمكن أن تكون إلا مجرد أشباه قضايا Pseudo-propositions (إبراهيم، د.ت: 272) إذن مبدأ التحقق هو الذي يضيف على القضية معنى، والقضية التي لا نستطيع أن نتحقق من صدقها أو كذبها هي قضايا فارغة من كل معنى فهي - كما عبر عنها كارناب - أشباه قضايا لأنها تحمل معاني متناقضة مع الواقع، وبالتالي فهي تخرج عن نطاق العلم.

يمكن أن نستنتج بأن العبارات التي يمكن أن نخضعها لمبدأ التحقق هي القضايا العلمية دون سواها. وهكذا رفعت الوضعية المنطقية شعاراً لنفسها أنها فلسفة علمية بامتياز، بدليل أنها جعلت من مبدأ التحقق بمثابة أداة صارمة لتقويض الميتافيزيقا. وعلاوة على ذلك فإن الدلالة الإستمولوجية للوضعية المنطقية تتجلى في البرنامج الذي قدمه كارناب، حيث كان وفيّاً له، إذ نستطيع أن نقدمه في ثلاثة نقاط، وهي كالتالي:

- التجريبية L'empirisme: أين ينبغي أن نخضع كل معرفة علمية للتحقق التجريبي.

- الوضعية Positivisme: وتحديداً الرفض القاطع للميتافيزيقا.

- تبني المنطق الصوري Logique formelle: كأداة لخدمة التحليل الفلسفي (Clément, 1944: 50).

إن هذا البرنامج قد وضح لنا بالفعل المنابع التي تشبعت منها الوضعية المنطقية متخذة الموقف الهجوم من الميتافيزيقا اعتماداً على "مبدأ التحقق"، أو كما يعرف في عرف الوضعيين المناطقة "بالمعيار التجريبي للمعنى"، الذي يرفض الاعتراف بوجود معنى لأي عبارات لغوية، سوى العبارات المدرجة في سياق العلوم الصورية والعلوم التجريبية.

من خلال المحطات التي تطرقنا إليها، يمكن القول بأن الوضعية المنطقية كانت تهدف إلى تخلص الفلسفة والعلوم من الميتافيزيقا الفارغة، لكنها سعت من جهة أخرى إلى تأسيس قاعدة علمية لجميع العلوم لتحقيق وحدة العلم Unity of science، فهل نجحت في تحقيق هذا المسعى؟

من المبادئ الجوهرية المؤسسة للميثاق العلمي "لجماعة فيينا" تخلص الفلسفة والعلوم من الميتافيزيقا، وتكوين قاعدة علمية عامة لجميع العلوم بحيث تصلح لأن تكون أساساً لوحدة العلم (ياسين، 2012: 229).

وهكذا أكدت الوضعية المنطقية على عدم تأسيس النظريات العلمية على نظريات ميتافيزيقية، فهي لا تهدف إلى هدم الفلسفة بقدر ما تهدف إلى نقد جانب من جوانبها المشكلة لها، والمتمثلة في الميتافيزيقا، لهذا السبب فإن الوضعيين المناطقة قد وضعوا في الحسبان التمييز المبدئي بين الميتافيزيقا في السياق التجريبي المنطقي وبين الفلسفة.

ولا شك أن هناك ارتباط وثيق بين الوضعية المنطقية وفلسفة العلوم، حيث أن الوضعية المنطقية ذات حركة نقدية تنفذ إلى قلب العلوم، وهذه هي الخاصية الأولى لفلسفة العلوم أنها حركة نقدية داخلية ذاتية، والمعرفة النقدية معرفة قابلة للنمو والتجدد باستمرار، الأمر الذي ساعد على إحداث ثورة علمية في المفاهيم

والتصورات والبناءات الداخلية للعلم، من أجل إرساء دعائم الفكر الإنساني على أسس واضحة لا لبس فيها (ابراهيم مصطفى، 2000: 65-66).

وهكذا تجلت وظيفة هذه الفلسفة العلمية الجديدة من خلال توضيحها لمفاهيم وقضايا مختلف العلوم، بما في ذلك العلوم الصورية والعلوم الإمبريقية. إن وحدة العلوم فكرة شغلت بال الكثير من أعضاء حلقة فيينا، لأن العلم الموحد لا يتحقق إلا ببناء لغة موحدة، لهذا السبب ركزت الوضعية المنطقية في جل مناقشاتها على مسألة طبيعة اللغة التي ينبغي تبنيها لتحقيق وحدة العلم.

إذا كان علماء كل علم مشغولون بتخصصهم دون غيره، ففي هذه الحالة لا رابطة بين العلماء في مختلف فروع العلم، لهذا يجب أن تترابط العلوم وتلتقي وأن تنسق القوانين في علم ما مع قوانين علم آخر، وليس هذا الربط من شأن العلماء وإنما من شأن فلاسفة العلم. وقد أراد الوضعيون أن تتم هذه الرابطة برّد التصورات والقوانين الأساسية في علم ما إلى علم آخر يستوعب هذه التصورات والقوانين، - وحسب رأيهم - يمكن ردّ التصورات الأساسية في علم الكيمياء إلى علم الطبيعة، وردّ علوم الأحياء إلى الكيمياء... الخ، وبالتالي يمكن تفسير كل ظواهر العالم الطبيعي والإنسان بقوانين علم الطبيعة. (فهيم، د.ت: 123)

وبهذا فإن المعتقد الذي التفت حوله الوضعية المنطقية هو وحدة العلم Unity of science، ولهذا المعتقد جانبان: الجانب الأول يتمثل في أن جميع العلوم التجريبية، مثل الفيزياء، الكيمياء، علم الأحياء وعلم النفس إنما تشترك في مفردات واحدة، حيث أن لغة الفيزياء مثلاً تكافئ مفردات لغة البروتوكول الفيزيائية، فهذه الأخيرة تحتفظ بالمضمون الواحد للمفردات العلمية الأساسية. ويعلن الجانب الثاني من برنامج وحدة العلم أن كل القوانين التي نجدها في جميع العلوم التجريبية، إنما يمكن اشتقاقها فرضاً من القوانين الفيزيائية، لكنه أمل افتراضي يتحدد صدقه أو كذبه - كما يقول كارناب - بأن ننتظر حتى نرى كيف تتطور العلوم في الواقع (كارناب، 1993: 13).

إذن اللغة الفيزيائية حتى الآن تبقى هي اللغة المناسبة لضمان وحدة العلوم، والتي تضمن عدم تسرب العناصر الميتافيزيقية إلى العلم الموحد. وفي هذا الإطار يقول "عبد الرحمن بدوي" عن وحدة العلم عند جماعة فيينا في موسوعته الفلسفية ما يلي: "اهتمت دائرة فيينا بفكرة وحدة العلم، وفي سبيل ذلك طالبت بلغة موحدة، بها يمكن التعبير عن كل قضية علمية، ولغة كهذه لا بد لها أن تحقق شرطين: إذ ينبغي أولاً أن تكون لغة بين "الأفراد" أي لغة ميسورة لكل إنسان، وعلاماتها تدل على نفس المعنى عند الجميع. وينبغي ثانياً أن تكون لغة عالمية، يمكن بها التعبير عن أي موضوع نشأه" (بدوي، 1984: 252). ولعل هذين الشرطين يتوفران في لغة الفيزياء - حسب رأي "نويراث" و"كارناب" - ومن هنا سميّ مذهبهما بالفيزيائية.

وقد وضح كارناب أن تحليل مفاهيم العلم على اختلافها سواء تعلق الأمر بالعلوم الطبيعية أو بعلم النفس أو بالعلوم الاجتماعية، إنما تردّ بالأساس إلى أسس مشتركة تتعلق بالمعطى الحسي، ومنه يمكن إقامة نسق واحد لجميع الأفكار العلمية على أساس موحد ومشترك. ومنه تنتهي بنا عملية التحليل المنطقي إلى العلم الموحد، فلا وجود لعلوم مختلفة ذات بنية منهجية مختلفة، فهي ذات نوع واحد، وما الخلافات الرئيسية بين العلوم، إلا على المستوى الشكلي، وهي نتاج التوظيفات المضللة للغة المستعملة في التعبير عن هذه العلوم (عزمي، 1980: 146).

إن تقسيم العلوم إلى فروع ما هو إلا إجراء عملي، لهذا سعت الوضعية المنطقية إلى تحقيق وحدة العلم، وبالتالي جاءت ضد الدعاوى التي تميز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية. إننا نستطيع أن نجزم أنه لم يسبق لنا وأن عرفنا في تاريخ الفلسفة بالذات محاولة جادة لتوحيد العلوم، ما عدا تلك التي قامت بها "جماعة فيينا" في هذا المجال و المتجلية في الاستفادة من التحليل المنطقي للغة العلمية، معتمدة على الآليات التي يزودنا بها المنطق المعاصر، بدليل إصدارها لمجلة: "الموسوعة العلمية للعلم الموحد". (جابر، 2010: 117) ولعل احترام الوضعية المنطقية للعلم مرده إلى تلك التجارب و النتائج العينية التي حققها، لأن القضايا التي لا تقوم على تجارب فهي ضرب من الأوهام، لذلك ينبغي استبعادها نهائياً لسبب بسيط وهو أنه لا يمكن التأكد منها تجريبياً. ومن هنا تتجلى لنا الصبغة العلمية والدلالة الإستيمولوجية للوضعية المنطقية الجديدة، فهي تسمي نفسها علمية لأن قضاياها تجريبية، فهي لا تعترف إلا بالقضايا اللغوية التي تشير إلى الواقع التجريبي. ومن ثم فهي تدعو إلى التجريبية والعلمية.

المراجع

- إبراهيم مصطفى، إبراهيم. (2000). (ط1). في فلسفة العلوم. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- إبراهيم، زكريا. (ط1، ت). دراسات في الفلسفة المعاصرة، دراسات في الفلسفة المعاصرة. القاهرة: دار مصر للطباعة.
- بدوي، عبد الرحمن. (1984). (ط1). موسوعة الفلسفة ج2. بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر.
- بغورة، الزواوي. (2005). (ط1). الفلسفة واللغة، نقد "المنعطف اللغوي" في الفلسفة المعاصرة. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- بوشنكي، إ. م. (1992). الفلسفة المعاصرة في أوروبا. تر: د. عزت قرني، عالم المعرفة، العدد 165. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- جابر، محمد عبد الرحمن. (2010). (ط1). نظرية العلامات عند جماعة فيينا، رودولف كارناب نموذجاً، دراسة وتحليل، دار الكتاب الجديدة المتحدة، طرابلس.
- خليل، ياسين. (2012). (ط2). مقدمة في الفلسفة المعاصرة. دراسات تحليلية و نقدية للاتجاهات العلمية في فلسفة القرن العشرين. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- الصراف الصايغ، نوال. (1983). (د.ط). المرجع في الفكر الفلسفي - نحو فلسفة توازن بين التفكير الميتافيزيقي والتفكير العلمي - دار الفكر العربي، القاهرة.
- الطويل، توفيق. (1967). (ط5). أسس الفلسفة. القاهرة: دار النهضة العربية. إمام، عبد الفتاح إمام. (1986). (د.ط). الميتافيزيقا. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- عاطف، أحمد. (1980). (ط1). نقد العقل الوضعي. دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي نجيب محمود، بيروت: دار الطليعة.
- عزمي، إسلام. (1980). (ط1). اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. الكويت: وكالة المطبوعات.
- فهمي، زيدان محمود. (ط1، ت). الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- كارناب، رودولف. (1993). (ط1). الأسس الفلسفية للفيزياء. تر: السيد نفادي. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

محمود زكي، نجيب. (1967). (د.ط). وجهة نظر. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
مور آي جي. (1994). (ط1). كيف يرى الوضعيون الفلسفة. مختارات مترجمة من كتاب الوضعية المنطقية. ترجمة
نجيب الحصادي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان. دار الأفق الجديدة.

BLAY, MICHEL. (2005). *Larousse, Grand dictionnaire de la philosophie*, Paris: CNRS éditions

CARNAP, RUDOLF. (1971). *the Logical Syntax of Language*, Tr. Amethe Smeatin, Rutledge and London:
Kagan LTD.

CLEMENT, ELISABETH. (1944), *La philosophie de A à Z*. Paris: Hatier.